تحقيق

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

تراث جبل عامل تحت الأنقاض وتاريخه يرفض الإنقراض تُحفه العمرانيّة العائدة إلى الزعامات إلتهمتها الغارات

لم تقتصر تداعيات الاعتداءات الاسرائيلية على جنوب لبنان، على الخسائر البشرية والمادية، بل طاولت ذاكرته العمرانية والسياسية والاجتماعية، مع تدمير عمارات تراثية شهدت محطات بارزة في تاريخ جبل عامل ولبنان، عائدة الى وزراء ونواب وزعامات اسهموا في صياغة هوية المنطقة ومشهدها الثقافي والسياسي، مما جعلها جزءا اصيلا من ارثها وذاكرتها الوطنية

مع توالي الاعتداءات الاسرائيلية خلال الحربين الاخيرتين، لم تسلم من التدمير أو الاضرار، معالم عمرانية اختزنت في هندستها ومقتنياتها فصولا من الحياة العامة على امتداد نحو قرنين، وشكلت شواهد على التاريخ الاجتماعي والسياسي للجنوب. تكتسب هذه الابنية القديمة اهمية اضافية لارتباط معظمها بشخصيات تركت بصماتها في المنطقة ولبنان عموما، ويعكس استهدافها نهجا تدميريا يهدد بمحو الذاكرة الجماعية والارث السياسي للجنوب.

ففي الحرب الاخيرة، اكتسب المسح الميداني الذي اطلقته جمعية "بلادي" عام 2024، برعاية بلدية النبطية، دلالة مأساوية. فالمبادرة التي شملت المدينة ومحيطها ووثقت 147 موقعا تراثيا، تحولت الى سجل لخسائر عمرانية وتاريخية فادحة، بعدما طاول الدمار معظم هذه المعالم، وحول العديد منها الى اطلال. علما ان هذا النزف التراثي لم يتوقف مع التوصل الى اتفاق وقف اطلاق النار برعاية اميركية، اذ استمرت الاعتداءات الاسرائيلية في تهديد ما تبقى من ارث النبطية العمراني وهويتها التاريخية، في خسارة تتجاوز الحجر إلى محو فصول من تاريخها الاجتماعي والسياسي.

"الامن العام" التقت رئيس فرع النبطية في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ونائب رئيس جمعية النبطية لحفظ الذاكرة والتراث والفنون كامل جابر.

■ ما هي الجهات التي تولت مسح الابنية التراثية وذات القيمة التاريخية سواء التي دمرت بالكامل أو التي تضررت جزئيا من جراء الحربين الاخيرتين؟

□ منذ ما بعد الحرب الاولى 2024 وبعد اتفاق وقف اطلاق النار في تشرين الثاني 2024، بدأت مدينة النبطية تسترجع انفاسها، فبادرت بلديتها الى فتح الطرقات فورا بعد ازالة الردم ومخلفات العدوان. ثم اهتمت بتصليح شبكات الكهرباء وفي طليعتها المولدات، والمياه والمجارير الصحية المتضررة. وبعد نحو شهر ونصف شهر، تقدمت "جمعية بلادي" التي تهتم بحماية التراث الوطني والتدخل في انقاذ ما يمكن انقاذه، الى بلدية النبطية بمشروع مسح ميداني للابنية التراثية والقديمة التي دمرتها الحرب، والتي لا تزال قائمة في احياء النبطية جميعها، وشمل المسح النبطية الفوقا وكفرتبنيت وزوطر الشرقية وزوطر الغربية، بالتعاون مع طلاب الهندسة في الجامعة اللبنانية. في هذا المشروع الذي استمر نحو شهرين في النبطية وحدها، جرى مسح واحصاء 147 منزلا وموقعا تراثيا تنتشر في مختلف احياء النبطية وقريبة من الساحة العامة، راوحت احوالها البنائية بين جيدة او تحتاج إلى ترميم أو تأهيل، وجرى اعتبار حي السرايا، الحي الاساسي والقديم في النبطية، حيًا تراثيا قائما في ذاته. كما عرضت نتائج المسح للعمارة التراثية في النبطية وجوارها في وزارة الثقافة، ثم نظم مؤتمر تراثي في 5 ايلول 2025 في البلدية، بمشاركة المديرية العامة للآثار وعدد من الجمعيات الثقافية والاهلية في المدينة (بلادي، تقدم المرأة في النبطية، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، النبطية لحفظ الذاكرة والتراث والفنون، ملتقى اطياف الفني، تجار مدينة النبطية والجوار، وبيت المصور في لبنان)، خصص لسبل حماية التراث وصيانته. تخللت الفعاليات ندوات ومعارض فنية، واصدار كتاب يضم 24 بطاقة توثق معالم تراثية فقدت خلال حرب 2024 أو مهددة بالزوال، وتحمل في خلفيتها شرحا عن كل موقع ومؤسسه وتاريخ بنائه بعنوان "تراثيات النبطية وجماليتها التشكيلية". على اثر ذلك، اصدرت المديرية العامة للآثار قرارا عاجلا يمنع منح رخص بناء جديدة من دون مراجعتها، حماية للبيوت التراثية من الهدم. فقدت النبطية خلال الحرب الاخيرة جزءا مهما من تراثها العمراني، إثر تدمير ما تبقى من ابنية قديمة في السوق التجارية القديمة قرب الساحة العامة يعود تاريخ بعضها الى اكثر من قرن، اضافة الى معالم تراثية في حي السرايا، بينها السوق الشمالية التي تضم دكاكين يتجاوز عمر بعضها 200 عام، فضلا عن تضرر جامع السرايا الاثري البالغ عمره اكثر من 150 عاما، وضريح المخترع حسن كامل الصباح الذي اصيب بأضرار خلال حربي 2024 و2025.

■ ما ابرز المباني التراثية والتاريخية التي تعرضت للتدمير الكلي أو الجزئي، وأين تركزت؟

□ فقدت النبطية خلال الحرب الاخيرة عددا كبيرا من مبانيها التراثية ذات القيمة التاريخية والمعمارية، والتي كان قد شملها المسح وصنفت بحال جيدة، ابرزها منزل الطبيب بهجت ميرزا المبني عام 1926 وتعد واجهاته من اجمل الواجهات المنزلية التراثية في الجنوب برمته، ومنزل محمود ضاهر المبني منذ نحو 100 عام والذي استخدم مدرسة لفترة من الوقت، ومبنى "الجزيرة" لآل جابر في السوق والذي بني في مطلع العشرينات من القرن الماضي، ومنزل الأديب الدكتور عدنان الشريف الذي تحتوي واجهاته على مجموعة من النحوت الجميلة. كما تضررت معالم ثقافية تضم مخطوطات ووثائق تاريخية عمرها اكثر من 80 عاما، بينها منزل النائب السابق الشاعر حبيب صادق في الكفور. تضاف هذه الخسائر إلى اندثار قصر الزعيم فضل حسن الفضل التاريخي الذي شيد عام 1890 وهدم عام 1992 بعد اهماله لسنوات، إلا أنه لم يفقده بنيته التاريخية والتراثية وجماليته المعمارية، وكان يمكن ترميمه، اذ كان من اجمل القصور على الاطلاق. كذلك طاولت الخسائر التراثية في النبطية مباني تاريخية ايضا تجاوز عمر بعضها المئة عام، بينها افران اللوز ومستوصف الصحة العامة، كما دمرت حرب الـ 66 يوما عام 2024 متاجر ودكاكين تراثية

> **147 معلما تراثيا بين عراقة البنيان ووحشية العدوان**



رئيس فرع النبطية في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ونائب رئيس جمعية النبطية لحفظ الذاكرة والتراث والفنون كامل جابر.

ذات بنية قديمة، منها خان رضا جابر المشيد منذ نحو 140 عاما، تضاف اليها دار سعيد حسن شاهين والد النائبين والوزيرين الراحلين غالب (1930 - 1968) وفهمي شاهين (1932 - 1974)، التي شيدت في اواسط عشرينات القرن الماضي بعد عودته من افريقيا، وتميزت بواجهتها التراثية الابرز في النبطية، وشرفتها الممتدة على اكثر من 25 مترا يتقدمها 15 قوسا معماريا. كما دمرت غارة اسرائيلية دار الوزير والنائب السابق الدكتور رفيق شاهين (1925 - 2011) التراثية فحولتها الى ركام، وجعلت معظم دارة آل ضاهر الملاصقة خرابا. وكانت دار شاهين مقرا للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي طوال 20 عاما، حيث استضافت نخبة من المثقفين والادباء والشعراء، بينهم المفكر العالمي نعوم تشومسكي الذي حاضر عن اغتصاب اسرائيل ارض فلسطين. ونجت دارة الوزير والنائب الراحل محمد بك الفضل (1912 - 1986) التي يتجاوز عمرها قرنا من الدمار الكلي رغم تضررها بشدة من جراء غارتين اسرائيليتين خلال حرب الـ 66 يوما. تكتسب هذه الدارة اهميتها التاريخية من توقيع صاحبها على علم الاستقلال الاول عام 1943، ومن كونها شاهدا على محطات بارزة في تاريخ المدينة السياسي والاجتماعي والتراثي، وقد ادرجتها وزارة الثقافة في لائحة الجرد العام للأبنية التاريخية عام 2023. كما تعرض منزل محسن شميساني في حي البياض بالنبطية، لتحطيم قرميده وتقويض بنيانه ليلتحق بالبيوت التي دمرها العدوان الاسرائيلي. اشير الى أن المسح الميداني التراثي الذي شمل النبطية الفوقا وكفرتبنيت والزوطرين الشرقية والغربية، تحول معظمه الى أثر بعد عين، بفعل النسف والتفجير والغارات الحربية رغم وقف اطلاق النار.

■ هل خضعت محتوياتها ومقتنياتها، لا سيما المخطوطات والمكتبات واللوحات الفنية، للتوثيق والجرد قبل تعرضها للقصف؟

□ عانت قصور النبطية وابنيتها التراثية الاهمال والنهب والتخريب منذ تهجير سكانها بفعل اعتداءات اعوام 1974، وتعاظم العدوان عليها ما بين 1976 و1978 وفي سنوات لاحقة، وتسببت في نزوح اهاليها، فاستخدمت ابوابها ونوافذها الخشبية ومكتباتها للتدفئة على ايدي بعض المقاتلين الفلسطينيين. وقد فاقمت حرب تموز 2006 والحربان الاخيرتان الخسائر، اذ اتلفت منازل تراثية ومكتبات ومقتنيات فنية نادرة، بينها اعمال لكبار التشكيليين امثال وجيه نحلة وزعل سلوم وماهر غندور، ومخطوطات ومحفوظات ادبية وتاريخية ولوحات لبول غيراغوسيان وحسن جوني وناظم ايراني ورفيق شرف في منزل الأديب الراحل حبيب صادق.

■ هل تسمح الامكانات التقنية باعادة بناء بعض هذه المنازل وفق طابعها المعماري الأصلي، أم أن جزءا من قيمتها التاريخية اصبح غير قابل للاستعادة؟

□ تميزت العمارة التراثية في النبطية بخصوصيتها وتنوع واجهاتها وزخارفها الحجرية وعناصرها الفنية الدقيقة. لم تكن العمارة متشابهة من حيث الواجهات ونسبة اعمال النحت في الصخر المكوّن لها هنا او هناك، وهذا ما يجعلنا نؤمن بصعوبة اعادة الكثير منها الى صورتها الاولى أو اعادة ترميمها وفق طابعها الاصلي، فضلا عن الكلفة الباهظة لاعادة ترميم العمارات التراثية.

■ من يتحمل مسؤولية تمويل ترميم الابنية: الدولة، اصحاب العقارات، الجهات المانحة، أم المؤسسات الدولية؟

□ شكل ترميم حسين فقيه لدارة محمد بك الفضل في النبطية نموذجا للحفاظ على التراث، اذ اسهم ادراجها في لائحة الجرد العام، في حمايتها من الاستثمار العقاري، رغم مساحتها التي تتجاوز الألفي متر مربع، مما يؤكد ◄

◄ اهمية ترسيخ ثقافة الحماية والصون حفاظا على شواهد تاريخ المدينة. لكن ثقافة الترميم في النبطية لم تترسخ خلال العقود الخمسة الماضية، فخسرت تدريجا عمارتها التقليدية لصالح مشاريع عقارية اكثر ربحية، مدفوعة بارتفاع اسعار الاراضي، وحتى محاولات تحويل بعض الدور التراثية الى مطاعم لم تحقق العائد المرجو مقارنة بنسبة الاستثمار في البناء الجديد، مما يعزز الحاجة الى دعم الترميم والتأهيل للحد من هدم المباني التراثية، بقرارات من وزارة الثقافة أولا، ومن خلال جهات مانحة ومؤسسات دولية على غرار تجارب صيدا وصور، الى جانب اضطلاع البلديات بدورها في حماية العمارة التراثية بوصفها جزءا من هوية المدينة، ودعم صون المباني المدرجة في لائحة الجرد العام.

■ الى أي مدى تسببت الحرب في فقدان عناصر من الذاكرة السياسية والثقافية والاجتماعية لجبل عامل وليس فقط الخسائر العمرانية؟

□ مع تدمير عشرات المكتبات ومحو اكثر من 60 مدينة وبلدة وقرية ومزرعة، بما تختزنه من مخطوطات ووثائق وصور ومكتبات، اضافة إلى البرك المائية والآبار والمدارس والمساجد والكنائس والحسينيات ومقتنيات تاريخية، تكون الاعتداءات الاسرائيلية قد طاولت الذاكرة التاريخية والثقافية والاجتماعية ولم تقتصر على المباني فقط. سيعود الجنوبيون الى قراهم المدمرة لاعادة بنائها فوق ركام ذاكرة تقصد العدوان الاسرائيلي المتمادي والمتواصل، طمس معالمها، وسيعودون الى مساحات خالية لكي يبنوها من جديد على ذاكرة ليس لها عنوان غير الدمار.

■ ماذا تمثل البيوت القديمة المرتبطة بعائلات سياسية وشخصيات تاريخية لذاكرة المنطقة وهويتها؟

□ تشكل بيوت السياسيين والزعماء في النبطية شواهد على تاريخ المدينة ولبنان السياسي. فقد لعبت ادوارا في بلورة هويتها وثقافتها، اذ احتضنت خلال حقبات ماضية رئيس الجمهورية بشارة الخوري، ورؤساء الحكومات رياض الصلح ورشيد كرامي وصائب سلام ورفيق الحريري وشفيق الوزان وسامي الصلح وتقي الدين الصلح، ورؤساء المجالس النيابية صبري حمادة واحمد الاسعد وكامل الاسعد ونبيه بري، ووزراء وشخصيات عالمية، الى بيوت الحزبيين والسياسيين من ابناء المدينة الذين اتخذوا قرارات في المواجهة في كثير من المحطات السياسية، ابرزها تظاهرة مزارعي التبغ عام 1973، والتصدي للاحتلال الاسرائيلي ومقاومته، وهي بيوت صنعت القرار الوطني السليم لتغدو النبطية جزءا من الذاكرة السياسية والوطنية. يضاف الى ذلك، أن بيوتا واندية استقبلت على مر العقود نخبة من الادباء والشعراء والفنانين والفرق الموسيقية، وقد صنعت تاريخ المدينة مما يستدعي حمايتها أو إعادة بنائها حفاظا على ذاكرتها. يشار الى ان الرئيس جوزف عون زار النبطية في ايلول 2026، كذلك الرئيس نواف سلام في مطلع تشرين الاول 2026، في زيارة تعد الثالثة له إلى قضاء النبطية منذ تشكيل حكومته، لطمأنة الاهالي والتأكيد على حضور الدولة إلى جانبهم.


ساحة مدينة تحولت بمبانيها التراثية ابرزها مبنى الجزيرة الى ركام.


دارة محمد بك الفضل بعد العدوان عام 2024.


حي السرايا حيث المسجد والمحلات التجارية.


منزل سعيد شاهين والد غالب وفهمي قبل تدميره عام 2024.


دارة الطبيب بهجت ميرزا قبل تدميرها مع واجهاتها الخلابة.

FMPS HOLDING S.A.L
SMG ISO 9001
Bioteck MEDICAL & HOSPITAL SUPPLIES S.A.L
Biotekno RESEARCH & QUALITY SOLUTIONS S.A.L
UNITED FOR A HEALTHIER WORLD
Supporting Lebanese Businesses since 1990
YOUR MISSION. OUR CARE.
Naccache, Talet el Srour, Blue Zone, FMPS Bldg.
P.O.Box 60247, Beirut-Lebanon
T +961 4 403 410/411 F +961 4 520164
fmps.holding FMPS Holding
FMPS.Holding FMPS Holding
www.fmpsholding.com